

جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل -

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم علم الاجتماع

محاضرات في مقياس العلم والأخلاق

موجهة لطلبة السنة الثالثة علم الاجتماع

إعداد الأستاذ /بودرمين عبد الفتاح

السنة الجامعية: 2021/2020

توطئة :

يُعَدُّ العِلْمُ من أهمِّ مَقَوِّمَاتِ المُجْتَمَعَاتِ، وسبباً في بنائها، وتقدُّمها، كما أنَّه يُساعد على تقدُّمِ الدُّولِ الناميَّة، ويمسح العَوَامِلَ المُؤدِّيَّةَ إلى الفَقْر، والجهل، والأُمِّيَّة، والرجعيَّة، والتي تُعتَبَرُ من أسباب تنامي الدُّول، وتأخُّرها فِكْريّاً، فالعِلْمُ من الأمور الضروريَّة، والواجب توافرها في حياة الإنسان، كالطعام، والشراب، ومن الجدير بالذكر أنَّ العِلْمَ يُساهم في إنتاج وسائل تُمكن الإنسان من مُواكبة العصور، والأزمنة المُختلفة،

وتُساعدُه على بناء مُستقبل باهر، ومُشْرِق يعود بالنفع عليه، وعلى أقاربه، علماً بأنَّ العِلْمَ يَنقسم إلى قسمين: عِلْم تاريخي، وهو: العِلْم المَنقول خلال الأزمنة عبر الأجيال المُختلفة، وهو ليس نوعاً من أنواع العلوم المُكتسبة لحظياً، أو في المُستقبل، إذ إنَّه مُتواجد بالفعل بالتزامن مع وجود الآباء، والأجداد، وكبار السنِّ عموماً، أمَّا العِلْم الحديث، أو المُعاصر، فهو: العِلْم اللازم تواجده؛ ليتمكَّن الفرد من الوصول إلى أهدافه، وغاياته في الحياة، ومُسايرة المُجتمع؛ لكي يتعلَّم الإنسان العيش، والتعايش فيه، كما أنَّه يزيد من عُلم، ومعارف الإنسان، ومعلوماته الراسخة حول المجالات المُختلفة. [١]

مفهوم العِلْم العِلْم بكسر الأوَّل، ثمَّ السكون جاءت مصدراً لمادَّة (ع،ل،م) التي معناها المعرفة، ويُعرَّف العِلْم لغةً بأنَّه: نقيض الجهل، وهو أيضاً: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكاً جازماً، أمَّا العِلْم اصطلاحاً فهو: مجموعة المعارف المُكتسبة، وهي بعكس الجهل، والأُمِّيَّة، وقد قال بعض أهل العِلْم إنَّ العِلْم واضح أكثر من تعريفه، ومن الجدير بالذكر أنَّه تمَّ تعريف العِلْم بمفاهيم أخرى، فهو: مجموعة مُتكاملة من النظريَّات الدقيقة، والمعلومات التي تزخر بها المراجع العِلْمِيَّة، ويُعرَّف أيضاً بأنَّه: مجموعة من المُعلومات العِلْمِيَّة المُتوارثة، أو أنَّه: مجموعة المبادئ، والقواعد التي تشرح بعض الظواهر، والعلاقات القائمة بينها، أو أنَّه: منبُع لجميع أنواع العلوم، ومُختلف تطبيقاتها.

خصائص العِلْم: للعِلْم خصائص عديدة تجعله مُهمّاً لجميع البشر، ومنها :

التجدُّد: العِلْم يُجدِّد نفسه باستمرار؛ أي إذا شابهُ خطأ فإنَّه يُصحِّح نفسه بنفسه.

- **التنظيم:** من أهمَّ خصائص العِلْم أنَّه يُرتَّب الأفكار، ويُنظِّمها، فهو يحرص على أن تكون القضايا العِلْمِيَّة المُتعلِّقة به كاملة، ومُترابطة، ومن الجدير بالذكر أنَّه عند ترتيب الأفكار، وتنظيمها، لا يترك الفرد أفكاره حُرَّة طليقة، بل إنَّه يبذل جهداً من أجل تحقيق أفضل تخطيط ممكن بالطريقة التي يُفكِّر فيها. البحث والتحري عن المُسبِّبات: لا يُمكن أن يكون التفاعل العقلي للأفراد علماً إلَّا إذا تمَّ توجيهه نحو

الظواهر، ومُحاوَلَة فهمها، وتعليلها، ولا يُمكن توضيح تلك الظواهر، وفهمها إلا إذا تمكّن الفرد من معرفة العَوامل المُسبّبة لها، كما أنّ البحث عن مُسبّباتها يُعزّز الميول الفطريّ لدى الإنسان، كما يُعزّز طريقة التحكّم في تلك الظواهر بشكلٍ أفضل.

التراكميّة: تُوضّح هذه الخاصيّة الطُّرق المَسؤولة عن تطوّر العلم؛ فالمعرفة العلميّة شبيهة بالبناء؛ حيث تحلّ النظريّات العلميّة الجديدة محلّ النظريّات العلميّة القديمة، وبهذه الطريقة تزداد سرعة عجلة الحضارة، ومن الجدير بالذكر أنّه لا يلزم العلماء البدء من الصفر في تفسير الظواهر، أو حلّها، بل إنّهم يبدؤون من المكان الذي وصل إليه العلماء السابقون.

- **الشموليّة واليقين:** إنّ المعرفة العلميّة شاملة، بمعنى أنّه يُمكن قبولها في حالات الظاهرة جميعها، وهذا يعني أنّ العلم شاملٌ، وقضاياها تُطبّق على الظواهر جميعها. الدقّة والتجريد: هذه الخاصيّة تزيد من سيطرة الإنسان على واقعه، وتُمكنه من فهم القوانين المُتعلّقة بالواقع أكثر فأكثر، ومن الجدير بالذكر أنّ العلم يلجأ إلى الرياضيّات؛ ليتمكّن من تحقيق الدقّة، والتجريد.

- **العلم نشاط إنسانيّ عالميّ:** فالعلوم نشاط يخصّ الإنسان وحده دون غيره، وهو ليس موضوعاً فرديّاً، أو شخصيّاً، بل إنّ الحقائق، والنظريّات الخاصّة به يتمّ نشرها عالميّاً، فتُصبح المعارف مَشاعاً، ومُلْكاً للجميع بمُجرّد ظهورها. العلم له أدواته الخاصّة به: فالعلم كأيّ نشاط يجب أن يمتلك أدوات، وأجهزة خاصّة به؛ وذلك لجمع المعلومات، وقياسها. العلم يُؤثّر في المُجتمع، ويتأثّر فيه: فالمُجتمعات تتأثّر، وتتطوّر بتأثير العلم، كما أنّ العلم ينمو، ويتطوّر بتأثير من الظروف السائدة في المُجتمعات.

أهميّة العلم: إنّ العلم من أهمّ الأمور التي يجب على الإنسان طلبها، والبحث عنها، والسعي إليها؛ لأنّ شرف نيله يعود على صاحبه بالنفع، وتزداد أهمّيّته، وفضله عند الشخص الساعي إليه، علماً بأنّ الإنسان الساعي إلى العلم، والتقدّم يتميّز بارتفاع مكانته، فكلّ إنسان يعلم المنزلة الحقيقيّة للعلم، وكلّ إنسان يُحبّ أن يُقال عنه إنّهُ ذو علم، ولا يرضى أن يُلقّب بالجاهل.

أهمية العلم في الإسلام: إنَّ أهمية العلم في الإسلام تتجلى في عدّة أمور، ومنها:
يُعتبر العلم من الأمور التي تُساهم بشكل كبير في معرفة الهدى؛ حيث ينجو العباد به من الضياع، والشقاء في الحياة الدنيا، وفي الآخرة، وقد دلَّ على ذلك قوله تعالى:
(فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ، فمن خلال العلم، والتعلُّم يتعرّف الفرد على الأسباب التي تُؤدّي إلى رضا الله تعالى، ونيل الفضل، والثواب في كلا الدارين، كما يعلم أيضاً كيف يسلم من سخط الله، وغضبه. إنَّ العلوم هي أصل العبادات؛ ويتبيّن ذلك في أنَّ كلَّ العبادات التي يُؤدّيها العبد غير مقبولة إلا إذا كانت خالصة لوجه الله تعالى، وتابعة لسنة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومعرفة ذلك تستلزم قدراً كبيراً من العلم، ومن الجدير بالذكر أنَّ معرفة أوامر الله، ونواهيه لا تكتمل إلا بالعلم. إنَّ الله يُحبُّ عباده العلماء، وقد أثنى عليهم، ورفع من مكانتهم. إنَّ العلم يُعلّم الإنسان كيفية دفع مكائد الشيطان، ومكائد الأعداء، كما يدلُّه أيضاً على الطريق الذي يُمكنه من النجاة من فتن الدنيا .

تعريف العلم- :

ما العلم ؟ هل هو مجموعة حقائق ثابتة ، هل هو مفاهيم ومبادئ ؟ هل هو طريقة تفكير ؟

لقد اختلفت الآراء حول تعريف العلم فلا يكاد يوجد تعريف محدد ومقتن لمفهوم العلم لاختلاف وجهات النظر حول طبيعة العلم ، فمنهم من يرى أن العلم هو هيكل من المعلومات ومنهم من يرى أنه طريقة في البحث والتفكير في حين يرى طرف ثالث أن العلم مزيج من المعرفة وطريقة البحث واتجاه التفكير ، ويرى طرف رابع أن العلم يتضمن القيم أو الأخلاقيات إضافة إلى المادة والطريقة ، ومن أجل التوصل إلى تحديد دقيق لمفهوم العلم يجب أن تؤخذ وجهات النظر الأربع بنظر الاعتبار. لقد تعددت تعريفات العلم واصبح من غير الممكن تحديد صياغة واحدة لهذا المفهوم ، لذا سنتطرق فيما يلي الى مجموعة من التعريفات المختلفة للعلم وهي :

العلم، هو كل نوع من العلوم و المعارف و التطبيقات.

هو نشاط انساني يهدف الى زيادة قدرة سيطرة الانسان على الظواهر الطبيعية

والبيولوجية.

هو طريقة لحل المشكلات.

هو مجموعة حقائق ثابتة تم التوصل إليها بالتجريب ؟. هو طريقة موضوعية سليمة تعتمد على التفكير واستغلال الخبرات السابقة وفرض الفروض وتجريبها والوصول إلى نتيجة دقيقة لا تعتمد على تحيز مسبق .

وهو مجموع مسائل وأصول كلية تدور حول موضوع معين أو ظاهرة محددة وتعالج بمنهج معين وينتهي إلى النظريات والقوانين.

ويعرف : بأنه البحث عن الحقيقة الموضوعية المستمدة من الملاحظة.

و بتعريف أكثر تحديداً، العلم هو منظومة من المعارف المتناسقة التي يعتمد في تحصيلها على المنهج العلمي دون سواه، أو مجموعة المفاهيم المترابطة التي نبحث عنها ونتوصل إليها بواسطة هذه الطريقة.

ومما سبق نستنتج ان مفهوم العلم في جميع المجالات يبقى واحداً ، الا ان المجال الذي يبحث فيه هذا العلم هو الذي يختلف ، فهو يبحث في ظواهر الكون الحية وغير الحية باستخدام الطريقة العلمية في حالة العلوم الطبيعية ، ويبحث في الظواهر النفسية للفرد والمجتمع باستخدام الطريقة العلمية ايضاً في حالة العلوم الانسانية.* وتشمل العلوم الطبيعية (الشاملة كالفيزياء والكيمياء أو المتخصصة كعلم الأحياء أو علم الأرض ، وعلم النجوم والفضاء).

*اما العلوم الإنسانية أو البشرية وهي التي تدرس الإنسان ومجتمعاته (علوم اجتماعية) وعلم النفس وعلم الاقتصاد.

*والعلوم الطبية والعلوم الهندسية.

لذلك يمكن اعتبار العلم : ((هرم معرفي متدرج قاعدته الحقائق العلمية وقمته الأفكار الأساسية ، تم بناؤه نتيجة البحث والتفكير وتحكمه قيم ويسعى لتحقيق خمسة أهداف هي الفهم والوصف والتفسير والتنبؤ والضبط أو التحكم.))

ويمكن تعريف العلم أيضاً بأنه : مادة او معلومات نحصل عليها بطريقة معينة موضوعية تسمى التفكير العلمي .

والتفكير الموضوعي : يتضمن عمليات عقلية حركية غير جامدة ديناميكية ، ويمكن وضعها في خطوات متسلسلة يعتمد بعضها على البعض الآخر ويختلف عددها حسب فلسفة الشخص المصنف والطريقة العلمية في التفكير توضح ذلك.

طرق متقدمة في التفكير الانساني:

من الطرق التي استخدمها الانسان ويستخدمها اليوم ضمن حدود وظروف معينة ، ما يلي:

اولاً : طريقة التفكير القياسي او الاستنباطي او الاستنتاجي Deductive:

Thinking :

وهي عملية عقلية يتم فيها الانتقال من العام الى الخاص ومن الكليات الى الجزئيات ، كأن يتوصل الطالب من (تعميم) علمي معروف – المعادن تتمدد بالحرارة – الى نتائج جزئية خاصة – النحاس يتمدد بالحرارة . وهذا يعني ان ما يصدق على الكل يصدق ايضاً على الجزء ، وهذا الاسلوب على الرغم اهميته قد يوقع الفرد في الخطأ ومن هنا استخدم الانسان التفكير الاستقرائي.

ثانياً : طريقة التفكير الاستقرائي Inductive Thinking :

وهي عملية عقلية يتم فيها الانتقال من الخاص الى العام او من الجزئيات (الامثلة) الى العموميات كأن يتوصل الطالب من ملاحظاته لحقائق (امثلة) معينة حالات فردية منفصلة (الحديد يتمدد بالحرارة ، النحاس يتمدد بالحرارة ، الرصاص يتمدد بالحرارة ...) الى تعميم علمي – المعادن تتمدد بالحرارة . يتضمن عكس التفكير القياسي ، على الرغم ان هذا التفكير يوصلنا الى بعض اشكال المعرفة العلمية او تعلمها ، الا ان صحتها قد تحتل الخطأ او الصواب لان الكل او التعميم يعتمد على مدى تجانس الكل او المجتمع موضوع البحث او الدراسة ، ومن هنا استخدم الانسان الباحث الطريقة العلمية في البحث والتفكير.

2. الطريقة العلمية: Scientific Method:

تعد مساعد الطلبة لاكتساب الطريقة العلمية هدفاً أساسياً في تدريس العلوم المختلفة ، وذلك انطلاقاً من مبدأ ان العلم : مادة وطريقة ، أي معرفة وطريقة منهجية في التفكير والبحث العلمي ، ولكي يكتسب الطالب الاسلوب العلمي في تفكيره ودراسته ، لابد له من ممارسة وتطبيق خطوات الطريقة العلمية لا حفظها على ظهر قلب.

*خطوات الطريقة العلمية

او العناصر الاساسية المشتركة في الطريقة العلمية لحل المشكلات التي ملخصها ما يلي :

أ -الشعور (الحس) بالمشكلة.

ب -تحديد المشكلة ، وصياغتها في صورة (اجرائية) قابلة للحل او بصيغة سؤال (موقف مشكل) او في صورة تقريرية

ت -جمع البيانات و المعلومات ذات الصلة بالمشكلة (المدروسة او المبحوثة.)

ث -وضع احسن الفرضيات (او التفسيرات) لحل المشكلة.

ج -اختبار الفرضية (او الفرضيات المؤقتة المحتملة) بأية وسيلة علمية.

ح -الوصول الى حل المشكلة.

خ -استخدام (الفرضية) كأساس للتعميم في مواقف اخرى مشابهة .

والطريقة العلمية بخطواتها السابقة هي التي يؤمل ان يكتسبها الطالب ويمارسها

عملياً ، وهي التي يستخدمها الباحث (العالم) في تقصي العلم واكتشاف حقائقه

ومفاهيمه ومبادئه . وباختصار فإن الطريقة العلمية هي : طريقة لحل المشكلات

بمعنى انها طريقة لحل المشكلة علمياً . وعليه اذا علم الطلبة او (اكتسبوا) الطريقة

العلمية فإنهم عندئذ سيستخدمونها في حل المشكلات التي تواجههم حتى ولو وضعوا

في مواقف حياتية لا خبرة لهم فيها .

س // اذكر عدد من الامثلة في مجال اختصاصك توضح فيها كيفية تطبيقك لخطوات

الطريقة العلمية في التفكير ؟

يتأثر تدريس العلوم في المرحلة الابتدائية كما هو في المراحل الاخرى بمدى فهم

المعلم لطبيعة العلم وهناك آراء مختلفة حول طبيعة العلم لذا من الضروري مناقشة الآراء على أساس أن معرفة هذه الآراء تساعد في توجيه تدريس العلوم بطريقة أفضل.

ويمكن تلخيص الآراء المختلفة حول طبيعة العلم:
العلم بناء من المعرفة:

أن مفهوم العلم هو جسم منظم من المعرفة العلمية يشتمل على الحقائق والمفاهيم والمبادئ والتعميمات والقوانين والنظريات العلمية . وتقوم النظريات العلمية بمهمة وصف الظواهر والأحداث الطبيعية وتفسيرها والتنبؤ بها ، وهذا الرأي يعطي اهتماماً واضحاً للجانب النظري للعلم .

س : إذا كنا ننظر للعلم على أنه بناء معرفي أو هيكل من المعلومات ، فما هي النتائج السلبية المترتبة على وجهة النظر هذه ؟

ج / سوف يكون لذلك نتائج سلبية عديدة يمكن إيجازها بما يأتي :

1-يصبح الهدف الرئيس من تدريس العلوم هو تزويد التلاميذ بالمعلومات المختلفة التي يتكون منها العلم فقط.

2-تكون طريقة المحاضرة أو الطريقة الإلقائية هي الشائعة في تدريس العلوم مع إهمال الطرائق الأخرى ، ويكون دور المعلم هو الملقن ويكون دور الطالب سلبي في إنشاء العملية التعليمية.

3-تبنى مناهج العلوم على المفهوم الضيق للمنهج ، حيث ستكون المناهج وفقاً لهذه النظرة قاصرة فقط على المحتوى المعرفي أو المادة الدراسية ، وتهمل العناصر الأساسية الأخرى في بناء مناهج العلوم على اعتبار أن المعرفة العلمية نتاج العلماء وثمره جهودهم.

يصبح الكتاب المدرسي هو المصدر الوحيد للمعلم والتلاميذ في عمليتي التعليم والتعلم دون الاستعانة بالمصادر الأخرى والوسائل التعليمية المتعددة تصبح المعرفة العلمية ثابتة مطلقة في صحتها وبالتالي غير قابلة للتعديل أو التغيير وهذا يخالف النظرة الحديثة عنها.

ينظر للتقويم على أنه وسيلة لمعرفة حفظ وتذكر المعلومات لدى التلميذ ، وسوف يركز على العمليات العقلية الدنيا ، ولا يتناول قياس قدرات التفكير عنده او مدى امتلاكه لعمليات العلم ومهاراته.

العلم طريقة في البحث والتفكير:

يعد العلم على وفق هذا الرأي طريقة منظمة في البحث والاستقصاء والاستكشاف .
واما المعرفة العلمية فهي نسيج متكامل من الحقائق والمفاهيم والمبادئ والتعميمات والقوانين والنظريات العلمية التي يكونها العالم نتيجة لانشغاله بالعلم وطرقه وعملياته . لذلك اقترح روبرت جانبيه منهاجاً لتدريس العلوم اطلق عليه اسم العلم منحي عملياتي وركز الاهتمام فيه على تدريس مهارات عمليات العلم .

س : ماذا نقصد بعمليات العلم ؟

ج/ عمليات العلم : هي قدرات ومهارات عقلية يكتسبها المتعلم في أثناء تعلمه مشابهة للأنشطة التي يقوم بها العلماء أثناء التوصل إلى نتائج العلم والحكم على هذه النتائج ، وقد قامت الرابطة الأمريكية لتقدم العلوم بتحديد عمليات العلم بثلاث عشرة عملية وصنفتها إلى نوعين هما : عمليات العلم الأساسية وعمليات العلم المتكاملة.
وان ما نعنيه بعمليات العلم الأساسية : هي تلك العمليات البسيطة الواقعة في قاعدة التنظيم الهرمي لعمليات العلم والتي تستخدم مع تلاميذ الصفوف الدراسية الأولية لسهولة اكتسابها ، وتشمل تلك العمليات : الملاحظة ، التصنيف ، القياس ، الاتصال ، التنبؤ ، الاستنتاج ، استخدام علاقات الزمان والمكان ، استخدام الأرقام .
أما عمليات العلم المتكاملة : هي عمليات متقدمة وأعلى مستوى من عمليات العلم الأساسية موزعة تلك العمليات خمس عمليات هي : تفسير البيانات ، التعريف الإجرائي ، ضبط المتغيرات ، فرض الفروض ، التجريب .

النظرة المزدوجة للعلم محتوى معرفي وطريقة تفكير :

يركز هذا التعريف على شقي العلم مادة وطريقة أي ان للعلم وجهين متكاملين وهما
المادة النظرية (المعرفة العلمية) والطريقة (المنهج العلمي) ، وينطلق هذا
التعريف من مبدأ اهمية (المعرفة) لتقدم العلوم وبناء المعرفة العلمية التراكمية،

وكذلك من اهمية (الطريقة) في الوصول الى تلك المعرفة ، فالعلم له شقان او وجهان متلازمان : (المادة والطريقة) لا يمكن لاحدهما ان ينمو او يتزعرع بمعزل عن الآخر ، وعليه ، وكتطبيق تربوي في تدريس العلوم ، ينبغي على معلم العلوم اظهار الصورة العقلية للعلم الذي يدرسه بمادته وطريقته سواء في اساليب تدريسه ام في وسائل قياسه وتقويمه لتعلم الطلبة.

مكونات العلم- :

س : ما المكونات الرئيسة للعلم ؟

ج/ لتبسيط الدراسة والإفادة منها في تدريس العلوم يمكن القول أن العلم يتضمن ثلاثة

مكونات رئيسة هي كالآتي:

المكوّن الأول : نتائج العلم :

تتضمن نتائج العلم كلا" من:

الحقائق العلمية

المفاهيم العلمية

.المبادئ والقواعد العلمية

القوانين العلمية

النظريات العلمية.

المكوّن الثاني : عمليات العلم:

تتضمن عمليات العلم كلا" من:

عمليات العلم الأساسية .

عمليات العلم المتكاملة.

المكوّن الثالث : أخلاقيات أو ضوابط العلم:

يتم الحكم على المعلومات الجديدة في ضوء عدد من المعايير المتفق عليها وهي :

القابلية للاختبار : Testability لا تضاف أي معلومة إلى رصيد المعرفة العلمية الا

بعد اختبار مصداقيتها.

الموضوعية : Objectivity وهي عكس الذاتية ، وتعني انتزاع الذات من الموقف أو من الظاهرة أو من الحدث موضوع الدراسة.

العالمية : Universality المعرفة العلمية ليس لها دين أو وطن أو جنس أو عرق وهذا يتطلب بالضرورة تبادل المعرفة العلمية بين العلماء.

الأمانة العلمية : Scientific Honesty أن الأمانة العلمية تقتضي أن يتوخى العالم الدقة في وصف وتسجيل الأحداث والملاحظات والظواهر ، وأن يرجع العالم المعرفة العلمية إلى مكتشفها ، وبهذا يحقق الأمانة العلمية الموضوعية.

البحث عن المسببات والايمان بان لكل حادث سبباً ، والبحث عن الادلة لتكوين القرارات ، واتساع الافق وتفتح الذهنية ، والايمان بالعلم ودوره في حل المشكلات ، وتحمل المسؤولية.

ثانيا : الأخلاق في اللغة والشرع والاصطلاح :

تعريف الأخلاق لغة:

الْخُلُقُ في لغة العرب: هو الطَّبْعُ والسَّجِيَّةُ، وقيل: المروءة والذِّين، قال العلامة ابن فارس: "الخاء واللام والقاف أصلان: أحدهما تقدير الشيء، والآخر ملامسة الشيء

فأما الأول، فقولهم: خَلَقْتُ الأَديمَ للسَّقاء، إِذا قَدَرْتَهُ، قال

لَمْ يَحْشِمِ الخالقاتِ فَرِيَّتُها

ولم يَغْضُ من نِطافِها السَّرَبُ

وقال زهير

ولأنت تفري ما خلقت وبع
ضُ القوم يخلقُ ثم لا يفري

[1]"ومن ذلك: الخُلُق وهي السجية؛ لأن صاحبه قد قُدِّر عليه

وقال الفيروز آبادي: "الخُلُق: بالضمّ، وبضمّتين: السجية والطَّبع، والمروءة
[2]"والدين

وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ ﴿١﴾ وقال ابن منظور: "الخُلُق: الخليفة؛ أعني: الطبيعة، وفي التنزيل
القلم: 4، والجمع: أخلاق، لا يُكسَّر على غير ذلك﴾ عَظِيمِ

والخُلُق والخُلُق: السَّجِيَّة - يقال: خالِصُ المؤمن وخالِقُ الفاجر، وفي الحديث: ((ليس
((في الميزان أثقل من حُسْن الخلق

والخُلُق: بضم اللام وسكونها، وهو الدين والطبع والسجية، وحقيقته أنه لصورة
الإنسان الباطنة، وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها، بمنزلة الخُلُق لصورته
الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولهما أوصاف حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب يتعلّقان
بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلّقان بأوصاف الصورة الظاهرة؛ ولهذا
[3]"تكرّرت الأحاديث في مدح حُسْن الخُلُق في غير موضع

، قال العلامة الراغب (بضمها) والخُلُق (بفتح الخاء) وفي التفريق بين الخُلُق
الأصفهاني: "والخُلُق والخُلُق في الأصل واحد كالشُّرب والشُّرب، والصَّرْم والصَّرْم،

لكن خُصَّ الخُلُق بالهيئات والأشكال والصور المُدرَكة بالبصر، وخُصَّ الخُلُق بالقوى [4]"والسجايا المُدرَكة بالبصيرة

وفي التفريق بين الخُلُق والخِيم قال القرطبي: "وحقيقة الخُلُق في اللغة هو ما يأخذ الإنسان به نفسه من الأدب يُسمَّى خُلُقًا؛ لأنه يسير كالخُلقة فيه، وأما ما طُبِع عليه من السَّجِيَّة والطبيعة، لا واحد له من لفظه، فيكون الخُلُق: (بالكسر) الأدب فهو الخِيم: الطَّبَع المتكَلَّف، والخِيم الطبع الغريزي، وقد أوضح ذلك الأعشى في شعره فقال

وإذا ذو الفضول ضنَّ على المو

لى وعادت لخيمها الأخلاقُ

[5]"أي: رجعت الأخلاق إلى طبائعها

الأخلاق شرعًا:

عند النظر والاستقراء لنصوص الشارع تجد أن الاستخدام الشرعي للفظ "الخُلُق"، لم يختلف كثيرًا عن الوضع اللغوي لهذه الكلمة

فقد جاءت كلمة الخُلُق في القرآن في موضعين

[الشعراء: 137] ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾: قوله تعالى على لسان قوم هود: **الأول**

أي: ما هذا الذي جئنا به إلا عادة الأولين يُلقَقون مثله ويدعون إليه، أو ما هذا الذي نحن عليه من الحياة والموت إلا عادة قديمة لم يزل الناس عليها، أو ما هذا الذي نحن [6]"عليه من الدين إلا عادة الأولين الذين تقدّمونا من الآباء وغيرهم

فخلُق الأولين هنا بمعنى دينهم وعاداتهم وأخلاقهم ومذهبهم، وهذا مروى عن ابن [8]والفرّاء وابن الأعرابي ومحمد بن يزيد وغيرهم [7]عباس رضي الله عنه وقتادة

وَإِنَّكَ ﴿: قوله - جلَّ وعلا - مخاطبًا سيد الخلق محمدًا صلى الله عليه وسلم: **الثاني**
[القلم: 4]﴾ **لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**

قال الطبري: "يقول - تعالى ذِكره - لنبيِّه محمد صلى الله عليه وسلم: وإنك يا محمد،
لعلى أدب عظيم، وذلك أدب القرآن الذي أدبه به، وهو الإسلام وشرائعه، وبنحو الذي
"قلنا في ذلك قال أهل التأويل

﴿: **خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾: ثم نقل عن ابن عباس ومجاهد وابن زيد والضحاك قولهم في تفسير
[9]أي: دين عظيم، وهو الإسلام

[10]وقال الماوردي: أي إنك على طبع كريم

أما في السُّنَّة المطهَّرة، فقد استخدمت لفظة الخُلق كثيرًا: ومن ذلك قول عائشة رضي
؛ [11]((الله عنها في وصف خُلق الرسول صلى الله عليه وسلم: ((كان خُلقه القرآن
أي: متمسكًا بالقرآن وبآدابه، وأوامره ونواهيه، وما يشتمل عليه من المكارم
[12]والمحاسن والألطف

[13]((ومنه: قوله صلى الله عليه وسلم: ((البرُّ حُسْنُ الخُلق

وحُسْنُ الخُلق هو التخلق بأخلاق الشريعة، والتأدب بآداب الله التي أدب بها عباده في
[14]"كتابه، وقد قيل: "إن الدين كله خُلق

[15]((ومنه: قوله صلى الله عليه وسلم: ((أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا

[16]"قال ابن رسلان: "الخُلق عبارة عن أوصاف الإنسان التي يُعامل بها غيره

وهذه المعاني في حقيقتها لا تُخالف الوضع اللُّغوي لكلمة الخُلُق، وإن صُبِغت بمعنى شرعي حين يعبرُ حُسْن الخُلُق عن الالتزام بالأداب الشرعية الصادرة عن الأحكام القرآنية والتعاليم النبوية خاصة.

:الأخلاق في الاصطلاح

في الاصطلاح تُطْلَق الأخلاق باعتبارين: أحدهما عام، والآخر أخص منه فمن العام ما ذكره الغزالي حين عرّف الخُلُق بقوله: "الخُلُق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تَصْدُر الأفعال بسهولة ويُسرٍ من غير حاجة إلى فِكْر [17]" وروية.

فالأخلاق هيئة ثابتة راسخة مُستقرّة في نفس الإنسان غير عارضة طارئة، فهي تُمثِّل عادة لصاحبها تتكرّر كلما حانت فرصتها، فإن كان الصفة عارضة فليست جديرة بأن تُسمّى خُلُقًا، فَمَنْ بذل المال مرة أو مرتين لا يقال: إنه كريم سخي، كما ينبغي عدم التكلف في صدور الفعل بحيث يَصْدُر بشكل تلقائي من غير تردّد وبصورة عفوية، لا تخضع للحساب والمراجعة وتقليب الرأي وإعمال الفكر، ولا يُقصد بذلك أن يكون العمل لا إراديًا، وإنما المقصد أنه من شدة تلقائية العمل وتَسارع أدائه تكون [18]مساحة التفكير في الأداء ضئيلة، بحيث تتلاشى أمام تسارع العمل.

وينبغي التنبيه إلى أن الصفات المستقرّة في النفوس ليست كلها من قبيل الأخلاق، بل منها غرائز ودوافع لا صلة لها بالخُلُق، ولكن الذي يَفْصِل الأخلاق ويُميّزها عن جنس هذه الصفات كون آثارها في السلوك قابلةً للمدح أو للذم، فبذلك يتميَّز الخُلُق عن الغريزة ذات المطالب المكافئة لحاجات الإنسان الفطرية، فإن الغريزة المعتدلة [19] ذات آثار في السلوك، إلا أن هذه الآثار ليست مما يُحمَد الإنسان أو يُذَم عليه.

وبهذا الإطلاق يشمل الخُلُق الحسن والقبيح، والمحمود والمذموم، وإن كان يَغلب إذا أُطلق عن التقييد إلى الخُلُق الحسن.

قال الطاهر بن عاشور: "خُلُق بضمّتين: فهو السجّية المتمكّنة في النّفس، باعثة على عمل يُناسِبها من خير أو شر، وقد فسّر بالقوى النفسية، وهو تفسير قاصر، فيشمل طبائع الخير وطبائع الشر؛ ولذلك لا يعرف أحد النوعين من اللفظ إلا بقيد يُضمّ إليه فيقال: خُلُق حسن، ويقال في ضده: سوء الخُلُق، أو خُلُق ذميم، فإذا أُطلق عن التقييد انصرف إلى الخُلُق الحسن"، ثم قال: "والخُلُق في اصطلاح الحكماء: مَلَكَة؛ أي: كيفية راسخة في النفس؛ أي: متمكّنة في الفكر، تصدر بها عن النفس أفعال صاحبها بدون تأمّل.

مؤتلفة من انطباع فكري إما جبلي (أي: طبائع نفسية) فخُلُق المرء مجموعة غرائز في أصل خُلُقته، وإما كسبي ناشئ عن تمرّن الفكر عليه وتقلّده إياه لاستحسانه إياه عن تجربة نفعه، أو عن تقليد ما يُشاهده من بواعث محبة ما شاهد، وينبغي أن يُسمّى اختيارًا من قول أو عمل لذاته، أو لكونه من سيرة من يحبه ويقتدي به، ويُسمّى بتقليدًا، ومحاولته تُسمّى تخلُّقًا.

قال سالم بن وابصة

عليك بالقصد فيما أنت فاعله
[20] إن التخلُّق يأتي دونه الخُلُق

أما الإطلاق الأخص لكلمة الخُلُق في الاصطلاح، فيُطلق على التمسك بأحكام الشرع وآدابه فعلاً وتركاً.

[21] ((ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((البرُّ حُسْنُ الخُلُق

وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ } -: وقول عائشة رضي الله عنها في تفسير قول الله - عز وجل [22] "القلم: 4": "كان خُلُقُه القرآن" عَظِيمٍ

وقد سبق بيانه عند الحديث عن المعنى الشرعي؛ فلا حاجة للإطالة بإعادته

- الأخلاق عند سقراط

الفلسفة، كما نعرفها، عبارة عن تفكير وتساؤل. لا أكثر ولا أقل. الفيلسوف عندما يتساءل، لا يبحث عن إجابة قاطعة، فلا توجد هناك إجابة قاطعة. إنما يدعوك للتفكير واستخدام العقل

هذه التساؤلات تساعدنا في إيجاد معنى لمفهومي الصبح والخطأ، وتعمق فهمنا لطبيعة الحياة السليمة والجيدة، وتهدينا لما يجب فعله أو تجنبه في هذه الحياة المليئة بالأسرار

في هذه الحياة، هل يوجد واجب أخلاقي علينا الإلتزام به؟ وهل هناك أخلاقيات مطلقة لا يمكن المساس بها؟ أم هي مجرد أشياء نسبية، تعتمد على العصر والمكان والثقافة وفهم الشخص نفسه؟ وهل هناك سبب ما، يدفعنا للتمسك بها والعض عليها بالنواجذ؟

أهم أعمال أفلاطون، ومؤلفه الذي يعتبر من أفضل الروائع الأدبية العالمية، هو كتاب "الجمهورية". يبدأ في أوله بمناقشة موضوع أسماء "ديكاويوسين". يترجم في معظم الحالات على أنه يعني "العدالة". لكن الترجمة الأقرب للصواب هي "الأخلاق". الأخلاق هنا بمعناها الأكثر شمولاً واتساعاً

في أول فصل من كتاب جمهورية أفلاطون، يفاجئنا السفسطائي ثراسيماخوس بقوله أن الأخلاق ما هي إلا مجموعة قرارات وقيود، يفرضها أصحاب السلطة والقوة على شعوبهم البائسة.

هذه القرارات والقيود، لا تصب دائما في صالح الشعوب، لكنها بالتأكيد تكون في صالح الحاكم المفترى الظالم صاحب القوة المطلقة. عندما يطالبنا أولي الأمر والنهي بالحجاب والنقاب لنسائنا، ويصرّون على تطبيق الحدود، ويأمروننا بطاعة الحاكم، والإلتزام بالأمانة والصدق، لا يكون ذلك لسواد عيون المواطنين، أو حبا في الفضيلة، ولكن لما فيه من مصلحة للذين يتربعون على عرش السلطة.

لكن العظيم سقراط يخبرنا، أثناء حوارهِ مع ثراسيماخوس، بأن الأخلاق لا تصب بالضرورة في مصلحة الأقوى. فيصرّ ثراسيماخوس على رؤية، بأن التمسك بالأخلاق مصيبة، وليست من مصلحة الشخص بصفة عامة.

الرجل المرتشي يكسب أكثر من الرجل الأمين. النصاب والمزور يدفعان ضرائب أقل من الرجل الصادق. المنافق يبلغ أسمى المراكز والمناصب. التلميذ الغشاش ينجح بدون حق. التاجر يكسب البلايين من احتكار السلعة. السياسي، بإخفاء الحقائق، يفوز بالانتخابات، وبإظهارها، ينتهي مستقبله السياسي، إلخ. إننا دائما نجد الشخص الغير متمسك بالأخلاق، هو الفائز. يكسب أكثر من زميله المستمسك بها.

هنا، وجب على سقراط أن يثبت العكس. كان عليه إثبات أن التمسك بالأخلاق شيء مفيد مفعوله أكيد. وعدم التمسك بالأخلاق، أمر قميء رديء غير مربح. هذا عمل لا يقدر عليه سوى فيلسوف مثل سقراط. فتعالوا معي لكي نرى ماذا يقوله سقراط في هذا الموضوع.

في نهاية الفصل الأول من كتاب الجمهورية، لاحق سقراط ثراسيماخوس بالأسئلة، مما جعله يترك المشهد غاضبا. مشكلة الأخلاق، كما أثارها ثراسيماخوس، لم تغادر المشهد معه. لكنها بقيت وتفاقت. الباب الثاني يبدأ بمناقشة ثلاثة أنواع من فعل الصّح، أو فعل الخير. هي:

- فعل الخير لذاته، مثل فعل أشياء تعطينا البهجة والمتعة

فعل الخير لعواقبه أو تجنباً لضرر ما، مثل تناول الدواء

فعل الخير لذاته وأيضاً لعواقبه، مثل الحفاظ على الصحة

يقول سقراط أن ما جاء بالبند الثالث السابق، هو كل ما يعنيه بالأخلاق. لكن معظم الناس تعتقد أن تعريف الأخلاق ينطبق على البند الثاني فقط، أي طلباً للخير أو تجنباً للضرر.

يشرح لنا جلوكون، أحد رفاق سقراط، فكرة الأخلاق عند العامة. يذكر لنا حكاية الخاتم السحري الذي يجعل الإنسان مخفي عن الأنظار. فيقول بما معناه، أن من يمتلك الخاتم السحري، يستطيع أن يهرب من عاقبة فعله

فمثلاً، يستطيع حامل الخاتم السحري إغراء الملكة وقتل الملك والاستيلاء على الحكم. أي واحد منا سوف يفعل نفس الشيء، إذا أتاحت له الفرصة. العبيط فقط هو من يقول "لا" أمام هذه الفرصة. إذا لمنا من يفعل ذلك، فهذا لأننا نشعر بالغيرة، أو لأننا لا نريد أن نبدو أشراراً أمام الآخرين

هنا يأتي رفيق آخر من رفاق سقراط، أديمانتوس، ليؤيد كلام جلوكون، ويقول بأن الأخلاق هي بالتأكيد البند الثاني. الناس تفعل الفعل الأخلاقي، لأنها تبغي الفائدة من ورائه.

تقوم بشعائر الأديان، لكي تدخل الجنة. تلبس النساء النقاب، ويرتدي الرجال الجلباب ويطلقون اللحية، لكي يكسبوا احترام الناس وثقتها. الأخلاق هنا سلع نقايضها بشئ آخر.

هذا الرأي تبناه لاحقاً ميكافيللي. فهو يقول بصراحة ووضوح في كتابه "الأمير"، أنه ليس من الضروري للأمير أن يكون رحيماً أو مؤمناً أو أميناً أو إنسانياً أو أخلاقياً في أفعاله، لكن من الضروري أن يظهر أمام الرعية على أنه يتسم ويتحلى بكل هذه الصفات. المهم الفائدة وليس الفعل نفسه

إلى هنا وسقراط يبدو لنا أنه يواجه مدافع ودانات من العيار الثقيل. فماذا يفعل وكيف يجب؟ لقد فعل ما قد يفعله الكثير منا في مثل هذا الموقف. لقد قام بتغيير الموضوع، أو هكذا يبدو لنا.

هنا يعترف سقراط أن المشكلة أصبحت معقدة، والتفاصيل أصبحت كثيرة متشعبة غير واضحة، تحتاج معها إلى مجهر أو عدسة مكبرة. ثم يقدم لنا نظرية تصاحبنا في "معظم كتاب الجمهورية".

نظرية سقراط تنقسم إلى قسمين. الأول، يقول بأن مشكلة الأخلاق يمكن أن تحل عندما نفهم طبيعة النفس البشرية. الثاني، يقول بأن فهم طبيعة النفس البشرية تكون ممكنة، عندما نقوم بدراسة المدينة أو المجتمع.

البحث عن المدينة الفاضلة يقودنا إلى فهم النفس الفاضلة أو المثالية. من هنا يمكننا تعريف الأخلاق، وماذا نعني بفعل الخير، وبذلك يمكننا الإجابة على السؤال: لماذا يجب علينا أن نتمسك بالأخلاق، دون أن نستخدمها كأداة لتحقيق مصلحتنا الشخصية؟

يقول أفلاطون أن سقراط قد توصل إلى النتيجة الآتية: المدينة الفاضلة تتكون من ثلاث طبقات متباينة. الطبقة الأولى، هي طبقة الحكام الحكماء الدارسين للفلسفة. وهي طبقة تماثل فضيلة الحكمة عند الفرد.

الطبقة الثانية، هي طبقة الجند أو الحراس، التي تحمي المدينة في الداخل والخارج. هذه الطبقة يجب أن تكون على علم بشئ من الفلسفة، حتى تستطيع أن تفرق بين العدو والصديق. من يثبت منهم أنه قد أتقن الفلسفة، يستطيع أن يرتقي إلى طبقة الحكام. وهي طبقة تشبه فضيلة الشجاعة عند الفرد.

أخيراً، طبقة الحرفيين والصناع والزراع. وهي تتكون من غالبية المجتمع، لكنها غير قادرة على الحكم، لأنها لا تعلم شيئاً عن الفلسفة. يجب على هذه الطبقة أن تمتثل للقوانين التي تُفرض عليها من الطبقة الحاكمة. امثال طبقة الحرفيين هذه، تمثل فضيلة اعتدال الشهوات عند الفرد.

بما أن المدينة أو المجتمع، صورة مكبرة للنفس البشرية، كما يقول سقراط، لذلك يمكننا القول بأن النفس البشرية تتكون من ثلاثة أشياء أيضا. العقل والروح والشهوة العقل دائما نجده معارضا للشهوة، التي تعتبر الجانب الحيواني في النفس. هي تسمى "الهي" عند فرويد. فرويد قسم النفس أيضا إلى ثلاثة أقسام: "الأنا الأعظم"، "الأنا"، ""الهي".

هذا ليس بالمستغرب، إذا علمنا أن فرويد كان قد تأثر تأثرا بالغا بكتاب الجمهورية لأفلاطون. العجيب أنه قد جاء بكتاب الجمهورية بأن الرغبات المكبوتة تظهر في صورة أحلام، قال سقراط هذا قبل فرويد بما يزيد على ألفي عام. فهل هناك جديد تحت الشمس؟

يقول الفيلسوف العظيم البريطاني ألفريد نورث وايتهيد: "تاريخ الفلسفة، ماهو إلا". تعليق وشرح لكتاب جمهورية أفلاطون

الأعجب، أن كتاب جمهورية أفلاطون كان يدرس هو وفلسفة أرسطو بالمدارس والجامعات المصرية، أيام عصر النهضة وحكم البطالمة الذي استمر أكثر من 300 سنة قبل الميلاد، وقبل دخول المسيحية والإسلام مصر

كنت أتمنى أن يكون أولي الأمر فينا وأعضاء مجلس الشعب واللجنة المشكلة لوضع الدستور المصري الجديد على علم بأصول الفلسفة أو يكونوا، على الأقل، قد قرأوا". وفهموا كتاب "جمهورية أفلاطون

يقول سقراط أنه إذا تغلبت الشهوة على الروح، أصبح الإنسان شهواني الطبع. وإذا تغلب العقل على الروح، أصبح الإنسان عقلاني. فضيلة العقل هي الحكمة، وفضيلة النفس هي الشجاعة، وفضيلة الشهوة هي الاعتدال

إذا تحكم العقل في جميع مكونات النفس الثلاثة، تكون النتيجة هي الأخلاق والكمال والفضيلة. عندها يصبح واضحا للفرد لماذا يجب أن يسلك طريق الأخلاق، ولماذا عليه أن يلتزم بها

لماذا يجب علينا أن نفعل الفعل الأخلاقي؟ لأن العكس سوف يؤدي إلى الفوضى والخلط. العكس سوف يخلق صراعا بين العقل والشهوة داخل النفس، وهذا لا يستقيم مع السلام الداخلي للفرد.

نبل الإنسان وفضيلته، تتطلب السلام الداخلي، وانتصار العقل على الشهوة، وعلى الجزء الحيواني من النفس. وتتطلب أن يأخذ الإنسان في اعتباره مصالح الآخرين، وليس مصالحه الشخصية فقط.

هنا يقول أفلاطون على لسان جلوكون، أن الفضيلة للنفس، هي مثل الصحة والجمال للبدن. العكس يعني المرض والقبح والضعف.

لنعود الآن إلى تساؤل ثراسيماخوس. هل من الأفضل أن لا نتمسك بالأخلاق؟ وهل الأخلاق للنفس فعلا، مثل الصحة للبدن؟ لكي نجابو على هذا السؤال، سوف نرجع إلى موضوع الفرد والمدينة مرة أخرى.

بالنسبة للفرد والمدينة، العدالة والأخلاق تنبع من مبادئ عقلانية لا دينية. هذه هي أصول الأخلاق عند الغرب حاليا، التي صاغها فلاسفة التنوير. المساواة وحقوق المرأة وحقوق الإنسان وتحرير العبيد، جاءت كلها لأسباب عقلانية. لأن الغرب وجد أنها منطقية تساعد على سلام المجتمع واستقراره.

لو اعتمدنا، بالنسبة للأخلاق، على التعاليم الدينية فقط، فلن تتم المساواة بين البشر، ولن تأخذ المرأة باقي حقوقها، ولن يتحرر العبيد. الخليفة العباسي، المتوكل، كانت لديه 3000 جارية، وطأهن جميعا.

الفرد يتمسك بالأخلاق عندما يتفهم المبادئ العقلانية التي تؤيدها. هذا الفهم، يجعله يسيطر على شهواته وغرائزه البهيمية.

التمسك بالأخلاق بسبب التعاليم الدينية فقط، والخوف من عذاب جهنم، والطمع في الجنة والحرور العين، دون أسباب عقلانية، قد يجعل الإنسان يعيد تفسير وتأويل التعاليم الدينية بما يوافق مصلحته الشخصية أو مصلحة الحاكم.

إصرار الرجل على أنه أفضل من المرأة، ومن ثم، له كل الحق في الزواج عليها وطلاقها وتشيدها هي وعيالها، وسجنها وطمس معالمها بالنقاب. موقف الإخوان والسلفيين من قضايا الدستور وحقوق الأقليات والمرأة، هو خير دليل على ذلك.

كل هذا يمكن فهمه بالنسبة لسلوك الفرد، لكنه شئ محير بالنسبة للمدينة. معظم الناس في مدينة أفلاطون بطبيعتهم أشرار. سواء لبسوا الجلباب القصير وأطالوا اللحية وحفوا الشارب، أو لم يفعلوا ذلك. هم جميعا، لا يستطيعون بمفردهم اكتشاف الأسباب العقلانية، التي تدعوهم للتمسك بالأخلاق الحميدة.

الأخلاق يجب أن تكون موضوعة على أسس عقلانية لا دينية. فهي ليس لها قوة في حد ذاتها، تفرضها على الجميع. لذلك يجب أن تُفرض الأخلاق والعدل في المدينة الفاضلة على الجميع بسلطة علوية.

يقول سقراط أن التمسك بالأخلاق هو من صميم مصلحة الفرد، حتى وإن لم يفهم معظم الأفراد ذلك. إذا رأينا أحدا يفعل فعلا لا أخلاقيا، فهو يفعل ذلك لأنه لا يعرف مصلحته الحقيقية.

يقول سقراط، الأخلاق والفضيلة عبارة عن معرفة. إذا عرفت معنى الخير، سوف تفعل الخير. الناس تفعل الشر لأنها لا تعرف. الناس لا تفعل الشر باختيارها. فعل الشر هو الجهل بعينه. الأخلاق هنا ليست لها علاقة بالجنة والحدود عين، ولا بالنار والسعير. إنما عبارة عن معرفة وجهل فقط.

الناس تسرق وتقتل وتبحث عن الشهرة والمجد، لأنها تعتقد أن هذا هو الطريق للسعادة. لكنهم لا يعرفون معنى السعادة. ولا يعرفون أنفسهم وما يسعدهم. لذلك، كما يقول سقراط، من المهم أن تعرف نفسك. فالحياة الغير مفهومة والخالية من البحث والتساؤل لا تستحق أن تعاش.

وأخيراً، هل قرأتم أو سمعتم تعبيراً أجمل أو أروع من تعبير: "الفضيلة للنفس مثل الجمال للبدن". هذا التعبير جاء في جمهورية أفلاطون منذ أكثر من 2300 سنة. قبل المسيحية وقبل الإسلام.

قصة الأخلاق عند سقراط

الفلسفة، كما نعرفها، عبارة عن تفكير وتساؤل. لا أكثر ولا أقل. الفيلسوف عندما يتساءل، لا يبحث عن إجابة قاطعة، فلا توجد هناك إجابة قاطعة. إنما يدعوك للتفكير واستخدام العقل.

هذه التساؤلات تساعدنا في إيجاد معنى لمفهومي الصح والخطأ، وتعمق فهمنا لطبيعة الحياة السليمة والجيدة، وتهدينا لما يجب فعله أو تجنبه في هذه الحياة المليئة بالأسرار.

في هذه الحياة، هل يوجد واجب أخلاقي علينا الإلتزام به؟ وهل هناك أخلاقيات مطلقة لا يمكن المساس بها؟ أم هي مجرد أشياء نسبية، تعتمد على العصر والمكان والثقافة وفهم الشخص نفسه؟ وهل هناك سبب ما، يدفعنا للتمسك بها والعض عليها بالنواجذ؟

أهم أعمال أفلاطون، ومؤلفه الذي يعتبر من أفضل الروائع الأدبية العالمية، هو كتاب "الجمهورية". يبدأ في أوله بمناقشة موضوع أسماء "ديكايوسين". يترجم في معظم الحالات على أنه يعني "العدالة". لكن الترجمة الأقرب للصواب هي "الأخلاق". الأخلاق هنا بمعناها الأكثر شمولاً واتساعاً.

في أول فصل من كتاب جمهورية أفلاطون، يفاجئنا السفسطائي ثراسيماخوس بقوله أن الأخلاق ما هي إلا مجموعة قرارات وقيود، يفرضها أصحاب السلطة والقوة على شعوبهم البائسة.

هذه القرارات والقيود، لا تصب دائما في صالح الشعوب، لكنها بالتأكيد تكون في صالح الحاكم المفترى الظالم صاحب القوة المطلقة. عندما يطالبنا أولي الأمر والنهي بالحجاب والنقاب لنسائنا، ويصرّون على تطبيق الحدود، ويأمرّوننا بطاعة الحاكم، والإلتزام بالأمانة والصدق، لا يكون ذلك لسواد عيون المواطنين، أو حبا في الفضيلة، ولكن لما فيه من مصلحة للذين يتربعون على عرش السلطة.

لكن العظيم سقراط يخبرنا، أثناء حوارهِ مع ثراسيماخوس، بأن الأخلاق لا تصب بالضرورة في مصلحة الأقوى. فيصرّ ثراسيماخوس على رؤية، بأن التمسك بالأخلاق مصيبة، وليست من مصلحة الشخص بصفة عامة.

الرجل المرتشي يكسب أكثر من الرجل الأمين. النصاب والمزور يدفعان ضرائب أقل من الرجل الصادق. المنافق يبلغ أسمى المراكز والمناصب. التلميذ الغشاش ينجح بدون حق. التاجر يكسب البلايين من احتكار السلعة. السياسي، بإخفاء الحقائق، يفوز بالانتخابات، وبإظهارها، ينتهي مستقبله السياسي، إلخ. إننا دائما نجد الشخص الغير متمسك بالأخلاق، هو الفائز. يكسب أكثر من زميله المستمسك بها.

هنا، وجب على سقراط أن يثبت العكس. كان عليه إثبات أن التمسك بالأخلاق شيء مفيد مفعوله أكيد. وعدم التمسك بالأخلاق، أمر قميء رديء غير مربح. هذا عمل لا يقدر عليه سوى فيلسوف مثل سقراط. فتعالوا معي لكي نرى ماذا يقوله سقراط في هذا الموضوع.

في نهاية الفصل الأول من كتاب الجمهورية، لاحق سقراط ثراسيماخوس بالأسئلة، مما جعله يترك المشهد غاضبا. مشكلة الأخلاق، كما أثارها ثراسيماخوس، لم تغادر المشهد معه. لكنها بقيت وتفاقت. الباب الثاني يبدأ بمناقشة ثلاثة أنواع من فعل: الصّح، أو فعل الخير. هي:

1. فعل الخير لذاته، مثل فعل أشياء تعطينا البهجة والمتعة -1

2. فعل الخير لعواقبه أو تجنبنا لضرر ما، مثل تناول الدواء -2

فعل الخير لذاته وأيضا لعواقبه، مثل الحفاظ على الصحة -3

يقول سقراط أن ما جاء بالبند الثالث السابق، هو كل ما يعنيه بالأخلاق. لكن معظم الناس تعتقد أن تعريف الأخلاق ينطبق على البند الثاني فقط، أي طلبا للخير أو تجنباً للضرر.

يشرح لنا جلوكون، أحد رفاق سقراط، فكرة الأخلاق عند العامة. يذكر لنا حكاية الخاتم السحري الذي يجعل الإنسان مخفي عن الأنظار. فيقول بما معناه، أن من يمتلك الخاتم السحري، يستطيع أن يهرب من عاقبة فعله

فمثلاً، يستطيع حامل الخاتم السحري إغراء الملكة وقتل الملك والاستيلاء على الحكم. أي واحد منا سوف يفعل نفس الشيء، إذا أتاحت له الفرصة. العبيط فقط هو من يقول "لا" أمام هذه الفرصة. إذا لمنا من يفعل ذلك، فهذا لأننا نشعر بالغيرة، أو لأننا لا نريد أن نبدو أشرارا أمام الآخرين

هنا يأتي رفيق آخر من رفاق سقراط، أديمانتوس، ليؤيد كلام جلوكون، ويقول بأن الأخلاق هي بالتأكيد البند الثاني. الناس تفعل الفعل الأخلاقي، لأنها تبغي الفائدة من ورائه

تقوم بشعائر الأديان، لكي تدخل الجنة. تلبس النساء النقاب، ويرتدي الرجال الجلباب ويطلقون اللحية، لكي يكسبوا احترام الناس وثقتها. الأخلاق هنا سلع نقايضها بشئ آخر.

هذا الرأي تبناه لاحقاً ميكافيللي. فهو يقول بصراحة ووضوح في كتابه "الأمير"، أنه ليس من الضروري للأمير أن يكون رحيماً أو مؤمناً أو أميناً أو إنسانياً أو أخلاقياً في أفعاله، لكن من الضروري أن يظهر أمام الرعية على أنه يتسم ويتحلى بكل هذه الصفات. المهم الفائدة وليس الفعل نفسه

إلى هنا وسقراط يبدو لنا أنه يواجه مدافع ودانات من العيار الثقيل. فماذا يفعل وكيف يجب؟ لقد فعل ما قد يفعله الكثير منا في مثل هذا الموقف. لقد قام بتغيير الموضوع، أو هكذا يبدو لنا.

هنا يعترف سقراط أن المشكلة أصبحت معقدة، والتفاصيل أصبحت كثيرة متشعبة غير واضحة، تحتاج معها إلى مجهر أو عدسة مكبرة. ثم يقدم لنا نظرية تصاحبنا في "معظم كتاب الجمهورية".

نظرية سقراط تنقسم إلى قسمين. الأول، يقول بأن مشكلة الأخلاق يمكن أن تحل عندما نفهم طبيعة النفس البشرية. الثاني، يقول بأن فهم طبيعة النفس البشرية تكون ممكنة، عندما نقوم بدراسة المدينة أو المجتمع.

البحث عن المدينة الفاضلة يقودنا إلى فهم النفس الفاضلة أو المثالية. من هنا يمكننا تعريف الأخلاق، وماذا نعني بفعل الخير، وبذلك يمكننا الإجابة على السؤال: لماذا يجب علينا أن نتمسك بالأخلاق، دون أن نستخدمها كأداة لتحقيق مصلحتنا الشخصية؟

يقول أفلاطون أن سقراط قد توصل إلى النتيجة الآتية: المدينة الفاضلة تتكون من ثلاث طبقات متباينة. الطبقة الأولى، هي طبقة الحكام الحكماء الدارسين للفلسفة. وهي طبقة تماثل فضيلة الحكمة عند الفرد.

الطبقة الثانية، هي طبقة الجند أو الحراس، التي تحمي المدينة في الداخل والخارج. هذه الطبقة يجب أن تكون على علم بشئ من الفلسفة، حتى تستطيع أن تفرق بين العدو والصديق. من يثبت منهم أنه قد أتقن الفلسفة، يستطيع أن يرتقي إلى طبقة الحكام. وهي طبقة تشبه فضيلة الشجاعة عند الفرد.

أخيراً، طبقة الحرفيين والصناع والزراع. وهي تتكون من غالبية المجتمع، لكنها غير قادرة على الحكم، لأنها لا تعلم شيئاً عن الفلسفة. يجب على هذه الطبقة أن تمتثل للقوانين التي تُفرض عليها من الطبقة الحاكمة. امثال طبقة الحرفيين هذه، تمثل فضيلة اعتدال الشهوات عند الفرد.

بما أن المدينة أو المجتمع، صورة مكبرة للنفس البشرية، كما يقول سقراط، لذلك يمكننا القول بأن النفس البشرية تتكون من ثلاثة أشياء أيضا. العقل والروح والشهوة العقل دائما نجده معارضا للشهوة، التي تعتبر الجانب الحيواني في النفس. هي تسمى "الهي" عند فرويد. فرويد قسم النفس أيضا إلى ثلاثة أقسام: "الأنا الأعظم"، "الأنا"، "الهي".

هذا ليس بالمستغرب، إذا علمنا أن فرويد كان قد تأثر تأثرا بالغا بكتاب الجمهورية لأفلاطون. العجيب أنه قد جاء بكتاب الجمهورية بأن الرغبات المكبوتة تظهر في صورة أحلام، قال سقراط هذا قبل فرويد بما يزيد على ألفي عام. فهل هناك جديد تحت الشمس؟

يقول الفيلسوف العظيم البريطاني ألفريد نورث وايتهيد: "تاريخ الفلسفة، ماهو إلا". تعليق وشرح لكتاب جمهورية أفلاطون

الأعجب، أن كتاب جمهورية أفلاطون كان يدرس هو وفلسفة أرسطو بالمدارس والجامعات المصرية، أيام عصر النهضة وحكم البطالمة الذي استمر أكثر من 300 سنة قبل الميلاد، وقبل دخول المسيحية والإسلام مصر

كنت أتمنى أن يكون أولي الأمر فينا وأعضاء مجلس الشعب واللجنة المشكلة لوضع الدستور المصري الجديد على علم بأصول الفلسفة أو يكونوا، على الأقل، قد قرأوا "وفهموا كتاب "جمهورية أفلاطون

يقول سقراط أنه إذا تغلبت الشهوة على الروح، أصبح الإنسان شهواني الطبع. وإذا تغلب العقل على الروح، أصبح الإنسان عقلاني. فضيلة العقل هي الحكمة، وفضيلة النفس هي الشجاعة، وفضيلة الشهوة هي الاعتدال

إذا تحكم العقل في جميع مكونات النفس الثلاثة، تكون النتيجة هي الأخلاق والكمال والفضيلة. عندها يصبح واضحا للفرد لماذا يجب أن يسلك طريق الأخلاق، ولماذا عليه أن يلتزم بها

لماذا يجب علينا أن نفعل الفعل الأخلاقي؟ لأن العكس سوف يؤدي إلى الفوضى والخلط. العكس سوف يخلق صراعا بين العقل والشهوة داخل النفس، وهذا لا يستقيم مع السلام الداخلي للفرد.

نبل الإنسان وفضيلته، تتطلب السلام الداخلي، وانتصار العقل على الشهوة، وعلى الجزء الحيواني من النفس. وتتطلب أن يأخذ الإنسان في اعتباره مصالح الآخرين، وليس مصالحه الشخصية فقط.

هنا يقول أفلاطون على لسان جلوكون، أن الفضيلة للنفس، هي مثل الصحة والجمال للبدن. العكس يعني المرض والقبح والضعف.

لنعود الآن إلى تساؤل ثراسيماخوس. هل من الأفضل أن لا نتمسك بالأخلاق؟ وهل الأخلاق للنفس فعلا، مثل الصحة للبدن؟ لكي نجابو على هذا السؤال، سوف نرجع إلى موضوع الفرد والمدينة مرة أخرى.

بالنسبة للفرد والمدينة، العدالة والأخلاق تنبع من مبادئ عقلانية لا دينية. هذه هي أصول الأخلاق عند الغرب حاليا، التي صاغها فلاسفة التنوير. المساواة وحقوق المرأة وحقوق الإنسان وتحرير العبيد، جاءت كلها لأسباب عقلانية. لأن الغرب وجد أنها منطقية تساعد على سلام المجتمع واستقراره.

لو اعتمدنا، بالنسبة للأخلاق، على التعاليم الدينية فقط، فلن تتم المساواة بين البشر، ولن تأخذ المرأة باقي حقوقها، ولن يتحرر العبيد. الخليفة العباسي، المتوكل، كانت لديه 3000 جارية، وطأهن جميعا.

الفرد يتمسك بالأخلاق عندما يتفهم المبادئ العقلانية التي تؤيدها. هذا الفهم، يجعله يسيطر على شهواته وغرائزه البهيمية.

التمسك بالأخلاق بسبب التعاليم الدينية فقط، والخوف من عذاب جهنم، والطمع في الجنة والحدود العينية، دون أسباب عقلانية، قد يجعل الإنسان يعيد تفسير وتأويل التعاليم الدينية بما يوافق مصلحته الشخصية أو مصلحة الحاكم.

إصرار الرجل على أنه أفضل من المرأة، ومن ثم، له كل الحق في الزواج عليها وطلاقها وتشيدها هي وعيالها، وسجنها وطمس معالمها بالنقاب. موقف الإخوان والسلفيين من قضايا الدستور وحقوق الأقليات والمرأة، هو خير دليل على ذلك.

كل هذا يمكن فهمه بالنسبة لسلوك الفرد، لكنه شئ محير بالنسبة للمدينة. معظم الناس في مدينة أفلاطون بطبيعتهم أشرار. سواء لبسوا الجلباب القصير وأطالوا اللحية وحفوا الشارب، أو لم يفعلوا ذلك. هم جميعا، لا يستطيعون بمفردهم اكتشاف الأسباب العقلانية، التي تدعوهم للتمسك بالأخلاق الحميدة.

الأخلاق يجب أن تكون موضوعة على أسس عقلانية لا دينية. فهي ليس لها قوة في حد ذاتها، تفرضها على الجميع. لذلك يجب أن تُفرض الأخلاق والعدل في المدينة الفاضلة على الجميع بسلطة علوية.

يقول سقراط أن التمسك بالأخلاق هو من صميم مصلحة الفرد، حتى وإن لم يفهم معظم الأفراد ذلك. إذا رأينا أحدا يفعل فعلا لا أخلاقيا، فهو يفعل ذلك لأنه لا يعرف مصلحته الحقيقية.

يقول سقراط، الأخلاق والفضيلة عبارة عن معرفة. إذا عرفت معنى الخير، سوف تفعل الخير. الناس تفعل الشر لأنها لا تعرف. الناس لا تفعل الشر باختيارها. فعل الشر هو الجهل بعينه. الأخلاق هنا ليست لها علاقة بالجنة والحدود عين، ولا بالنار والسعير. إنما عبارة عن معرفة وجهل فقط.

الناس تسرق وتقتل وتبحث عن الشهرة والمجد، لأنها تعتقد أن هذا هو الطريق للسعادة. لكنهم لا يعرفون معنى السعادة. ولا يعرفون أنفسهم وما يسعدهم. لذلك، كما يقول سقراط، من المهم أن تعرف نفسك. فالحياة الغير مفهومة والخالية من البحث والتساؤل لا تستحق أن تعاش.

وأخيراً، هل قرأتم أو سمعتم تعبيراً أجمل أو أروع من تعبير: "الفضيلة للنفس مثل الجمال للبدن". هذا التعبير جاء في جمهورية أفلاطون منذ أكثر من 2300 سنة. قبل المسيحية وقبل الإسلام.

الاخلاق عند فريديريك نيتشه :

يعد الفيلسوف الألماني «فريديريك نيتشه» أكثر الفلاسفة جدلاً منذ أن وضع كتاباته المختلفة في نهاية القرن التاسع عشر، وعلى رأسها: «أبعد من الخير والشر»، (Genealogy of Morality) «وكتابه «علم الأنساب الأخلاقي» فلقد مثل بحق صدمة للنمط الفكري السائد في عصره، بما يمكن عده من الأسس الرئيسية لمدارس فكرية أتت من بعده، وعلى رأسها المدرسة الوجودية، وإلى حد كبير مدرسة ما بعد الحداثة. كما أنه كان أيضاً الفكر الذي تملقه النازيون والفاشيون، وهو في التقدير منهم براء، فهو يمثل رأس منحني فكري جديد، وذلك رغم أن عمره لم يمتد، فمات في 1900، ولكن ليس قبل أن تصيبه جلطة دماغية أودعته على فراش الموت لإحدى عشرة سنة.

وعلى غير عادة الفلاسفة الألمان العظماء الذين سبقوه، من أمثال «كانط» و«هيجل»، فإن «نيتشه» لم يشغل نفسه وفكره بالنظريات المعرفية أو «الأيستيمولوجية» في سعيه لوضع مفاهيم للحياة، ولكنه كان أقرب ما يكون للفيلسوف العملي النفسي الأخلاقي، فكتبه تقترب من السهل الممتنع، باستخدامه للأفكار الصادمة المغلفة بلغة مبسطة، ولكنها مركبة المعنى عميقة الأثر، مستخدماً التي يحتاج المرء لقراءتها (Aphorism) الحكيم وصانعاً للأقوال الماثورة المتعمقة أكثر من مرة والتفكر فيها لقبولها أو رفضها.

ويمكن عد كتابه «علم الأنساب الأخلاقي» أكثر الكتب تعبيراً عن فكره، فهو كتاب

صادم بكل المعايير، إذ يبدأ أو ينتهي إلى أن العالم الغربي يفتقر في عصره إلى نقطة القاسم الأخلاقي المشترك التي كانت تمثلها المسيحية بصفاتها محوراً لصناعة القيم على مدار قرابة ألفيتين، ولكنها فقدت رونقها أو جذورها بصفاتها مصدراً للأخلاق بسبب العلم الذي جعل العقلانية العلمية منافساً شرساً لها بصفاتها مصدراً للأخلاق، وهو ما دفعه للإعلان صراحة أن المسيحية قد ماتت؛ أي أنها اختفت عن الرادار الأخلاقي أو الفلسفي الأوروبي.

ومن هذه الفرضية، قدم «نيتشه» رؤيته لوضعية الأخلاق وفقاً له، فعد أن هناك «نوعين من الأخلاق خلال الألفيتين: «أخلاق السادة» و«أخلاق العبيد» فمن خلال الأولى تصنع أنماط الأخلاق المرتبطة بالطبقات الحاكمة أو المسيطرة التي تقدر القوة والجمال والشجاعة والنجاح... إلخ، والتي تكون لديها ما سماه «الرغبة في السلطة» التي تعد بالنسبة له المحرك الأساسي لطبقة من البشر، بكل ما تعنيه كلمة سلطة من مال ونفوذ... إلخ، فهم صنّاع أنماط الحياة التي يفرضونها على باقي المجتمع، بما في ذلك المفاهيم الأخلاقية

أما «أخلاقيات العبيد» فترتكز إلى مجموعة قيمية أخرى مرتبطة بالطيبة والتعاطف، وتكريس مفاهيم الحب والتواضع والتسامح والخنوع... إلخ، وقد ساهمت المسيحية في انتشار هذه المنظومة القيمية، مقابل منظومة القيم الأخلاقية للسادة، ولكن الأخطر كان منحها العامة ما كان ضرورياً لقبول قيم السادة، حتى إن اختلفت عن قيمها، على اعتبار أن الجائزة الكبرى ليست في هذه الدنيا، وهو ما دفعه للتحقير من شأنها، مبرراً الفكرة الماركسية بأن «الدين أفيون الشعوب» الذي استخدمته الطبقات الحاكمة لفرض الطاعة لها، ولمنظومتها السلطوية والأخلاقية

وبناءً على هذا الفكر، رأي «نيتشه» أهمية أن يهتم المرء بضرورة اتباع ما سماه «التكرار الأبدي»؛ أي أن يتأقلم المرء على الحياة التي يعيشها حتى يجعلها تستحق الحياة مهما كانت صعبة، فيستمتع بأكثر ما يمكن أن تقدمه له

ويرى «نيتشه» أن القيم أو الأخلاق هي أصعب ما يمكن للمرء أو المجتمع تغييره لأنها قوية الركيزة عميقة الجذور، وهي أكثر العوامل تأثيراً على سلوك البشر،

وتحتاج لفترات زمنية كبيرة حتى تترسخ، ومن ثم صعوبة اقتلاعها، ومن هنا كانت دعوته الشهيرة لإعادة تقييم قيمنا القائمة، وصناعة نمط جديد مرتبط بالإنسان وتاريخه وكيونته، واضعاً عبارته الشهيرة «إن الإنسان يجب أن يتغلب على الإنسان» بالدخول في آفاق قيمية أرحب مما هي لدينا، بما يجعله وفقاً لوصفه ؛ أي أن الإنسان بحاجة إلى تطوير قيمه (Oubbermench) «الرجل الخارق المجرده المستندة إلى تاريخه وسلوكياته، وليس بالأنماط السابقة

ولا خلاف على أن «نيتشه» كان أثره كبيراً على أجيال من المفكرين الذين تلوه، ولكن التقدير أنه وقع في الخطأ نفسه الذي يقع فيه كثير من الغربيين اليوم في سعيهم لصياغة المطلق على تجربتهم التاريخية والقيمية المجردة، فرفضه لأي دور للدين المسيحي في التطور التاريخي الأوروبي إنما أفقد فكره قدراً كبيراً من الشمولية المطلوبة، فلا خلاف على أن القيم الأخلاقية مسألة تراكمية على مر الزمن، تؤثر فيها عوامل كثيرة، منها السلطة والأبعاد الميتافيزيقية، خاصة أن التاريخ يقدم لنا نماذج لعظماء قوم ساهموا في صناعة ما وصفه بـ«أخلاقيات العبيد»، وعلى رأسهم الإمبراطور الروماني «ماركوس أوريليوس»، النموذج العملي والفكري للرواية الذي اتبع ما وصفه «نيتشه» بـ«أخلاقيات العبيد» وهو إمبراطور، تماماً مثل الخليفة عمر بن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز، وغيرهما

الحقيقة أن فكر «نيتشه» يحتاج منا إلى قدر من الحيطة والحذر والتفكر في أن، فالإنسان ليس في صراع مع تاريخه وعوامل صناعته بهدف التجرد منها حتى يصبح «الرجل الخارق» وفقاً له، ولكنه بحاجة إلى التصالح والتفاهم مع تاريخه بعين على الماضي وعين وعقل على المستقبل لتنظيم إحداثياته الإنسانية في مسيرته، خاصة المتعلقة بالأخلاق ومفاهيمها

(فلسفة كائنا الأخلاقية (الواجب)

في بيئة متدينة إذ كان والداه ينتميان إلى شيعة "1724- 1804م" نشأ إمانويل كانط بروتستانتية تستمسك بالعقيدة اللوثرية، وتؤمن بأن موضع الدين الإرادة لا العقل، وأنه لابد من أن يؤيد الإيمان بواسطة الأعمال، وتتنظر إلى المسيحية إلى أنها تقوى تفسيراً مصطنعاً أقحم على "علم الكلام المسيحي" ومحبة لله بينما ترى في اللاهوت أردت أن أهدم" المسيحية، وقد تأثر كانط بهذه العقيدة في فلسفته، وقال في فلسفته [1]"العلم بما بعد الطبيعة لأقيم الإيمان

وفي مذهبه الأخلاقي استبعد مذهب السعادة الشخصية، لأنه يرد الخير إلى اللذة والمنفعة، كما أنه يعجز عن استخراج قانون كلي ضروري من أنواع الحساسية الجزئية المتغيرة، ولا يضع تمييزاً بين بواعث الرذيلة، ولم يوافق أيضاً على مذهب العاطفة الأخلاقية مع اعترافه بالفضيلة أولاً وبالذات، ولكنه في الوقت نفسه استبدل ولم "بالمنفعة الحسية الرضا النفسي، ولجأ أنصاره إلى العاطفة ليأسهم من العقل [2]"يقدموا أن العاطفة متغيرة نسبية لا تصلح مقياساً للخير والشر

إنه مع تسليمه بأن الإنسان يسعى إلى بلوغ السعادة، إلا أن فكرة السعادة قد بلغت من عدم التجديد مبلغاً جعل كل إنسان يعجز عن التعبير عما يشتهي بالرغم من رغبته في تحقيق السعادة لنفسه، ذلك لأن العناصر المختلفة للسعادة مستمدة من التجربة، ومن ثم فإنه من المستحيل على كائن متناه - وهو الإنسان - وإن ظن أنه أحكم المخلوقات وأشدّها قوة أن يكون فكرة محددة عما يريده على وجه الدقة من وجوه على هذه الأرض، فإن أراد الثروة مثلاً فإنه سرعان ما يتعرض للحسد والدس والوقية، وإذا سعى إلى المزيد من المعرفة والبصيرة، فربما أدى ذلك إلى أن يزيد بصره نفاذاً إلى فمن يضمن له الشرور التي تتوارى عنه في حالته الراهنة، وإذا اشتهى عمراً طويلاً، وكذلك في طلبه للصحة، فربما كان اعتلال الجسد ألا يكون شقاء طويل الأجل؟ عاصماً من إفراط كان سبباً في وهن الصحة الكاملة "إنه على الجملة عاجز عن أن يحدد بيقين تام، وبمقتضى مبدأ من المبادئ ما يمكن أن يوفر له السعادة الحقّة، لأنه

سيحتاج حينئذ إلى المعرفة الكلية التي تحيط بكل شيء، وإذن فليس في استطاعة الإنسان لكي يحصل على السعادة أن يراعي في أفعاله مبادئ محددة وإنما عليه أن [3]"يتبع نصائح تجريبية".

لقد كان كانط في مقدمة القائلين بوجهة النظر المثالية، فأراد أن يحرر السلوك الأخلاقي من قيود الميول والأهواء، ولهذا استبعد اللذة والمنفعة والسعادة غاية قصوى لأفعال الإنسان الإرادية، إذ جعل الباعث يقوم في الإرادة نفسها، وبذلك [4]ارتدت عنده الأخلاقية إلى مبدأ الواجب.

ويقدم لنا بعض الواجبات بحسب تقسيمها إلى واجبات نحو أنفسنا وواجبات نحو:
غيرنا وهي

لنضرب مثلاً حالة رجل بلغ به اليأس حدًا قرر معه أن يضع حدًا لحياته، فإذا ما 1- بحثنا إن كان من الممكن أن يصير فعله قانونًا طبيعيًا عامًا؟

والمشكلة حينئذ هي أنه هل يمكن أن يتحول مبدأ حب الذات هنا إلى قانون طبيعي ولكن الإنسان سرعان ما يدرك أن الطبيعة التي يهدف قانونها إلى تحطيم "عام؟ الحياة عن طريق الإحساس الذي تقوم وظيفته على دفع عجلة التطور في الحياة، إنما تناقض نفسها بنفسها ولا يمكن أن تحتفظ تبعًا لذلك بما يجعلها طبيعية، وأن من المستحيل على تلك المسلمة أن تصبح قانونًا طبيعيًا، وأنها نتيجة لذلك كله تناقض أي أن الانتحار يستحيل أن يصبح قانونًا [5]"المبدأ الأعلى للواجب مناقضة تامة طبيعيًا.

حالة امرئ احتاج إلى اقتراض مبلغ من المال بينما يعلم أنه لن :الحالة الثانية -2
يتمكن من سداذه، وتتنازع الرغبة في عدم السداد، ولكن سرعان ما يقف في وجهه. وازع الضمير لينبئه إلى تحريم الالتجاء إلى هذه الطريقة لحل ضائقته المالية

وحتى إذا كان هذا المبدأ عادلاً، فإنه لن يصبح بأي حال من الأحوال قانوناً طبيعياً عاماً "وذلك لأن التسليم بقانون عام مؤداه أن كل إنسان يعتقد أنه في ضائقة يستطيع أن يعد بما يخطر على باله، مع النية المعقودة على عدم الوفاء بهذا الوعد سيجعل الوعد نفسه والغاية التي يطمع في تحقيقها عن طريقه أمراً مستحيلاً، إذ لن يصدق [6]"أحد ما يبذل له من وعود

يتمتع بكثير من المواهب ويحتاج معها إلى التثقيف والتدريب ولكنه **أمر ثالث-3** يهملها ساعياً وراء اللذات بدلاً من بذل الجهد في تنمية استعداداته الفطرية وتحسينها، ثم سرعان ما يتبين له أن نزعته الطبيعية إلى التمتع باللذات لا تتفق مع ما يسمى بالواجب. كما لا يمكن أن تصبح قانوناً طبيعياً عاماً "ذلك لأنه بما هو كائن عاقل، يريد بالضرورة أن تنمي جميع ملكاته لكونها نافعة له، ولأنها أعطت له ليبلغ ألواناً [7]"عديدة من الغايات والأهداف

الذي توافرت له أسباب الحياة الرغدة فإنه ينظر إلى من حوله من **أما الرابع-4** المكافحين دون أن يمد لهم يد المساعدة مع مقدرته على ذلك، بل لا يرغب في تحقيق السعادة لهم بمعاونتهم بالمال أو الوقوف إلى جانبهم في أوقات الشدة إن مجرد إرادة أن يتحول ذلك التصرف إلى قانون طبيعي عام تناقض نفسها بنفسها "فقد يحدث في كثير من الحالات أن يحتاج مثل هذا الإنسان إلى حب الآخرين وعطفهم، وأن يجد نفسه محروماً من كل أمل في الحصول على المساعدة التي يتمناها، إذ يحول بينه [8]"وبينها ذلك القانون الطبيعي المنبثق من إرادته ذاتها

ومن هنا نستطع أن نتبين أفعال الواجب التي يحددها كإنط على النحو التالي
إن محافظة الإنسان على حياته واجب، والإحسان واجب، وتأمين الإنسان لسعادته [9]الذاتية واجب غير مباشر، ومحبة الجار ولو كان عدواً واجب

وهكذا فإن الأفعال الإنسانية لا تكون خيرًا إلا إذا صدرت عن واجب، لا عن ميل مباشر أو رغبة في تحقيق مصلحة شخصية، فإذا أدى الإنسان واجبًا - كإنقاذ غريق - فإنه لكي يصبح تصرفه أخلاقيًا ينبغي أن يكون باعث الواجب من بين عدة بواعث هو الكافي للإقدام على الفعل، ومع إقرار العواطف النبيلة كعامل مساعد لإتيان الأفعال الخيرة فإن غرسها في النفس يعد واجبًا أيضًا "فإن العالم يفتقد من اتخاذ السعادة غاية مباشرة لأفعالنا. إن علينا واجبًا غير مباشر يقضي بالبحث عن [10]"سعادتنا

تعريف الواجب

ولكن ما هو تعريف كانط للواجب؟

[11]"إنه يصفه بأنه "ضرورة القيام بفعل عن احترام للقانون

والإنسان ليس في حاجة إلى علم ولا فلسفة لكي يعرف ما ينبغي عليه أن يفعل لكي ذلك لأن المبادئ [13]، وإن معظم أفعالنا تتفق مع الواجب [12] يكون أمينًا وخيرًا خالصة من كل عنصر تجريبي، وأنه لا يمكن أن "الأخلاقية هي مبادئ قبلية بحتة [14]"نجدها أو نجد أقل جزء منها إلا في تصورات العقل الخالصة

ومن السهل علينا أن نفرق بين الأفعال التي تصدر عن شعور بالواجب والأخرى التي تتبع عن حرص أناني على المصلحة. مثال ذلك أن التاجر الفطن يتحاشى رفع سعره ويحافظ على مستوى سعر ثابت للجميع بحيث يستطيع أن يشتري بها الطفل وأي إنسان آخر، وهنا لا محيص من الاعتراف بأنه يعامل المشتريين بأمانة، ولكن لا يكفي هذا للاستدلال عن صدور فعله التزامًا بمبادئ الواجب، لأن مصلحته قد اقتضت ذلك، ولا نستطيع افتراض أنه يتصرف مع عملائه بوحى من عاطفته نحوهم

"وإذن فلم يصدر هذا السلوك لا عن واجب، ولا عن ميل مباشر، بل كان الباعث [15]" عليه هو المصلحة الذاتية وحدها

وعلى العكس من ذلك - كما تبين لنا آنفاً أن محافظة الإنسان على حياته واجب بالرغم من إحساسه أحياناً بالتعاسة والهزيمة والهوان وتمني الموت، فمحافظة على حياته بالرغم من كل هذه الظروف صادر عن مسلمة ذات مضمون أخلاقي

وكذلك الإنسان الذي يحسن إلى الغير منفلاً من همومه الذاتية التي تقضي على كل مشاركة وجدانية للآخرين، وصرفه معاونتهم عن الانشغال بشقائه الشخصي فإن تصرفه هذا يصدر عن شعور بالواجب. وكذلك يأتي تأمين الإنسان لسعادته من قبيل الواجب بطريق غير مباشر "ذلك لأن عدم رضا المرء عن حاله وتزاحم الهموم العديدة عليه ومعيشته وسط حاجات لم يتم إشباعها قد تكون إغراء قوياً له على أن ولكن لابد من أن تكون قاعدة تحقيق السعادة مصحوبة [16]" يدوس على واجباته بأضرار تلحق ببعض الميول؛ ويصدر التصرف إذن لا عن ميل بل عن إحساس [17] بالواجب

ومن هذا يتضح أن السمات الرئيسية للواجب تتحدد وفقاً للقواعد الثلاث الآتية:
أنه تشريع كلي وقاعدة شاملة، وتكمن قيمة الواجب في صميم الواجب نفسه: **أولها** بصرف النظر عن أية منفعة أو فائدة أو كسب مادي، وعلى هذا فإن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يفعل مع معرفته بأن "قيمة الفضيلة إنما تزيد كلما كلفتنا الكثير، [18]" دون أن تعود علينا بأي كسب

أن الواجب منزّه عن كل غرض، فلا يطلب لتحقيق المنفعة أو بلوغ السعادة: **الثانية** وإنما ينبغي أن يطلب لذاته، أي ينبغي أن نؤدي واجبنا "فليست الأخلاق هي المذهب

الذي يعلمنا كيف نكون سعداء بل هي المذهب الذي يعلمنا كيف نكون جديرين
[19]"بالسعادة

للوإجب أنه قاعدة غير مشروطة لفعل، أي أنه قانون سابق، أو حكم :والسمة الثالثة
[20]أولي سابق على التجربة

:ويشترط للواجب شرطين هما الحرية وازدواج الطبيعة البشرية

:الحرية وازدواج الطبيعة البشرية

يذهب كانط إلى القول بأن الالتزام الخلقي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالشعور بالحرية،
وينبغي علينا أن نوضح كيف وصل هذا الفيلسوف إلى فكرته عن الحرية بتحليله
للطبيعة البشرية وإثبات ازدواجها

إن الحديث عن مصدر الإلزام في فلسفته وثيق الصلة بفلسفته الميتافيزيقية في تصور
:الكون. فالعالم عنده عالمان

.عالم الأشياء كما هي ذاتها :أحدهما

هو عالم الأشياء التي تبدو لنا وهو يختلف عن الأول، مثال ذلك أن :والعالم الثاني
الرجل الذي ولد على عينيه منظار أزرق اللون مثلاً يرى كل شيء مصطبغاً بهذا
اللون، وكذلك العقل، فإنه يضيف إلى الأشياء صفات الكم والكيف كون الشيء علة أو
معلولاً، يشغل حيزاً من المكان أو الزمان "بهذا لا ندرك قط شيئاً على حقيقته، وإنما
[21]"ندركه كما يبدو لنا

والإنسان لا يخرج عن نطاق العالم الذي أنشأه وصوره له عقله أو على الأقل ساهم
في إنشائه

وبالمقارنة بين العالم والإنسان، فإن للإنسان بدوره مظهرين أحدهما: يتمثل في ذاته التجريبية التي تربطه بعالم الأشياء كما تبدو

والإنسان بهذه الصفة له طبيعة مزدوجة أي يخضع مع غيره من المخلوقات لقوانين والعمول الجبرية تتصل باستعداداته "أي الطبيعي" العلية التي تحكم العالم الفيزيقي السيكلوجية والفسولوجية والجنس الذي انحدر عنه، والطبقة المنتمي إليها والبيئة التي نشأ فيها والتربية التي تدرج بها، ولكن مع هذا، فإن الإنسان ليس كالجماد والحيوانات التي لا تستطيع بطبيعتها أن تتصرف على غير الذي تصرف عليه فعلاً، وإنما هو يتميز عنهما - كما يتميز عن الظواهر الطبيعية - بظاهرة ينفرد بها دون غيره من الكائنات، لأنه الكائن الوحيد الذي يعد من جهة خاضعاً للسنن الطبيعية ونظمها خضوعاً كاملاً ويعد من جانب آخر مزود بدوافع ورغبات تملي عليه ما يأتيه هو " أن يفعله، أي أن الإنسان وحده "بما ينبغي" من تصرفات. إنه يتميز بالشعور [22]"الذي يشعر بالإلزام يوجب عليه أن يتصرف وفقاً لمبدأ

وهنا يبدو المظهر الثاني للإنسان، وهو انتماءه إلى عالم الحقائق في ذاتها، وحينما يشعر الإنسان بالإلزام الخلقي، إنما يستلهمه من مثل أعلى متحرراً من آثار الوراثة وقيود البيئة ومواضعات الظروف، متجرداً عن العالم الطبيعي، متخلصاً من الجانب وعندئذ يتصرف " الذي يربطه بالعالم كما يبدو، مرتفعاً إلى عالم الحقائق في ذاتها ككائن أخلاقي، فيخضع سلوكه لمبدأ الواجب، ويزاول أفعاله بإرادة حرة، ولا يتقيد [23]"بغير نفسه التي تعتنق مبدأ أخلاقياً تدين له بالولاء

نقد المذهب:

يتجاهل كانط الغالبية من البشر بمكوناتهم المذهبية والعاطفية الذين يسعون بتصرفاتهم وسلوكهم إلى غايات تختلط فيها الأهداف بتحقيق منافع أو بحث عن

سعادة، أو تحكم أعمالهم دوافع الرجاء أو الخوف، وتتعدد واجباتهم بتعدد الأحوال والعلاقات.

إن قانون الواجب الصارم يصلح فقط لقلة خاصة من ذوي الإرادات الحديدية الذين لا الواجب فحسب، حتى لو أدى ذلك إلى توضيحات بالمال " يحققون من سلوكهم إلا عمل "والوقت والراحة وغيرها

المجرد عن "شكله المحض" إن هذه الصيغة الكانطية التي تقيم الإلزام على أساس هذه الصيغة يصعب الانقياد لها في كل الأحوال [24]مادته

ويقول الدكتور دراز "الواجب الكلي العام، فلنقبله، ولكن ينبغي أن نفرق بين درجات: كثيرة من العمومية فإن لها امتدادًا بقدر ما لها من مفاهيم الواجب الأبوي والأموي، والزوجي، والبنوك، واجبات الرياسة والصداقة والمواطن "والإنسان واجب العمل وواجب التفكير وواجب المحبة

وهل من حقنا أن نقول لرئيس أن يعامل من هم أعلى منه رتبة " ويتساءل بعد ذلك معاملته لمرؤسيه؟ وأن نطلب إلى زوج أن يعامل كل نساء الدنيا كما يعامل زوجته [25]"والعكس؟

ثم يطرح لنا البديل في تنفيذ أوامر الشرع ونواهييه وهي التي تجعل المؤمن لا يذعن للواجب "كفكرة" أو "ككائن عقلي" ولكنه يذعن له من حيث هو صادر عن الله تعالى الذي زودنا بالعقل وأودع فيه الحقائق الأولى، بما في ذلك الحقيقة الأخلاقية في المقام الأول.

ثالثاً: العلم والأخلاق

العلم من أهم ركائز المجتمعات وعناصر نهضة الأمم والشعوب كونه يبني الأفراد والمجتمعات ويسهل لهم أمور حياتهم، أما الأخلاق فهي تحصن الفرد وتقوي المجتمعات وتحميها.

العلاقة بين العلم والأخلاق علاقة تكاملية فلا أثر طيب للعلم بدون أخلاق ولا أخلاق صحيحة من غير علم يبصر ويرشد لأنه العين المبصرة للأخلاق.

فالأخلاق والقيم هما الوعاء الحافظة والراعية للعلم وتترتب على اقتران العلم بالأخلاق آثار إيجابية تعم الأفراد والمجتمعات على حد سواء منها قوة شخصية الفرد حامل العلم وثقة الناس به وبعلمه وتشجيع الناس على طلب العلم، والبحث عنه وتتبعه وكذلك قوة تماسك المجتمع وعلو هيبته لوجود نماذج متعددة من العلماء المتسربلين بالأخلاق في علمهم.

فأنت تجد العالم الصادق في علمه أياً كان تخصص مجال علمه، فكل العلوم متى قيدت وحقت بالأخلاق فإنها حتماً ستعود بالنفع على الجميع كعلوم الطلاب والهندسة وغيرها.

ولا ننسى تشجيع روح التنافس بالمجتمع نتيجة ما يراه الناس من خلق العلماء والناس بفطرتهم السوية وسجاياهم الحسنة تميل نفوسهم إلى تقليد وتتبع الإنسان السوي الناجح في حياته النافع لغيره، ومن ذلك أيضاً قيادة الأمم وعلو شأنها وذلك باقتران العلم بالأخلاق وكذلك فإن لتجرد العلم من الأخلاق الحسنة آثاراً وخيمة تعود على الأفراد والمجتمعات على حد سواء منها عدم ثقة الناس بحامل العلم لما وجدوا فيه من أخلاق سيئة ذميمة وتنفير الناس من طلب العلم والبحث عنه وعدم الاكتراث بحملته ووجود انتشار الضرر كأثر مباشر لانتزاع صفة الأخلاق كالصدق والأمانة من العالم وكطبيب يفتقر إلى الأمانة أو مدرس يؤثر نفسه على غيره على حساب المبادئ والقيم ويضحى بالصدق من أجل مصلحته الشخصية، وكذلك قتل روح الهمة والتنافس لطلب العلم في المجتمع لنفور الناس من النماذج التي يرونها في طلاب العلم والعلماء وتسمم العلاقات الاجتماعية وتفكك المجتمعات وفي المحصلة النهائية يتقهقر الأمم والشعوب وأقول نجمها نتيجة لأزمة لتراكم الأخطاء المترتبة على العلماء بسبب غياب وارع الأخلاق لديهم .

وأخيراً فإن العلم والأخلاق جناحين يحلق بهما الفرد والمجتمع على حد سواء ولا ينفع التحليق بأحدهما دون الآخر.